من عتمة الحيرة إلى نور المونتيسوري

كنت أعلم أن «آدم» ليس طبيعيًّا، بمقاييس المجتمع، لكنني كنت أرى تفرده ومعجبة به أشد الإعجاب. كانت علاقتنا صلبة وحميمة، وكنا نستمتع معًا في المنزل وخارجه. لكن رغمًا عنى، فأنا ابنة المجتمع والواقع، كنت أبحث عن أسباب تأخر «آدم» اللغوي والحركي. كنت أحاول أن أجد بين السطور ما يؤكد لي أنه طفل طبيعي، أو أنه سيكون طبيعيًّا مع الوقت. خلال رحلة بحثي عما يطمئنني، بدأت قراءة كتاب «سر الطفولة» The Secret of Childhood لـ«ماريا مونتيسوري»، في هذا الكتاب خصصت فصلًا كاملًا للحديث عن «الطفل الطبيعي»، وأطلقت لفظ Normalization للإشارة إلى عملية تحويل الطفل «المختلف» إلى طفل «طبيعي».

في بداية دراستي لنهج المونتيسوري، دبلومة الطفولة من الميلاد حتى ثلاث سنوات، شعرت باستياء كبير تجاه هذا المفهوم! لماذا تريد «ماريا مونتيسوري» تعديل وتغيير و«صنفرة» الاختلافات التي تميز كل طفل عن الآخر؟ شعرت بتناقض بين كل ما قرأت سابقًا عن احتواء نهج المونتيسوري للاختلافات الفردية بين الأطفال، وتشجيع الأهل على

مراعاة اهتمامات طفلهم في الأنشـطة التي يقدمونها له، وبين هذه الدعوة لاستنساخ أطفال «طبيعيين»! فما معنى «طبيعي»؟ ومن يحدد شروط هذا الطفل «الطبيعي»؟

واصلت القراءة فوجدت إجابات أسئلتي!

قالت د. «ماريا مونتيسوري» إن جميع المواليد يشتركون في طبيعة واحدة تسمى طبيعة الأطفال، وأن لتلك الطبيعة سمات محددة تظهر وتنمو في وجود البيئة الصديقة التي تساعد الطفل على الاستكشاف بحرية وتتبع شغفه وتكرار محاولاته حتى يتقن مهارة تلو الأخرى. في نهج المونتيسوري، الطفل «الطبيعي» يظهر عليه الذكاء منذ شهوره الأولى _قبل أن ينمو إدراكه للأشياء_ نجده لديه فضول وشغف وحب استطلاع. في البيئة الصديقة، يتعلم تفضيل السلام والهدوء والنظام على العبث والتدمير، ويستمتع بإنجاز المهام التي يختارها ولا يبدو عليه الكسل أو الوخم.

شبهت د. «مونتيسوري» الانحراف عن تلك الطبيعة بالمرض؛ تختفي الصحة خلف أعراض المرض وانحرافات الشخصية في الأطفال هي بمثابة أمراض سببتها بيئة معادية لصحة الطفل. مثلًا، الطفل الكسول المدمر الصارخ غير المهتم بأي شيء، طفل يعيش في بيئة غير صحية تسببت في مرضه وانحراف شخصيته. عند إعادة الطفل إلى «حالته الطبيعية» التي فطر عليها تختفي الكثير من الصفات غير المحببة التي تسببت في ظهورها عوامل خارجية لها علاقة مباشرة ببيئته في المنزل أو الحضانة أو المدرسة. من أمثلة هذه الصفات: عدم الترتيب، العصيان، الكسل، الجشع، الأنانية، المشاكسة وافتعال المشاكل وعدم الاستقرار الداخلي.

كما أوضحت د. «ماريا مونتيسوري» الفرق بين الهلوسة والخيال. الطفل في حالته «الطبيعية» يتخيل فيخلق وينتج ولكن الطفل الذي أتلفته الأساطير والفانتازيا يسبح في خياله حتى ينفصل عن الواقع ولا ينتج عن خياله شيء. منذ سنوات عديدة، أدركت كيف أثرت أفلام «والت ديزني» بالسلب عليَّ. لقد شوهت مفاهيم الحب والعلاقات والارتباط والزواج، وجعلتني منفصلةً تمامًا عن الواقع. صورة الفارس المُخَلِّص والأميرة التي لا تملك سوى الجمال والعلاقات السطحية حلت محل العلاقات المبنية على الحوار والصداقة والاحترام وتقبل الآخر.

اكتشفت أيضًا أنني كنت محقة في رفضي لأي شكل من أشكال العقاب لـ«آدم»؛ انتقدت «ماريا مونتيسوري» حالة خضوع الطفل لسيطرة الأهل في شكل طاعة عمياء، وأكدت على أن الطفل الطبيعي يتأرجح بين الطاعة والعصيان حتى يستطيع أن يدرك الخير والشر، وعواقب الأفعال ثم يختار الطاعة والخير بكامل إرادته، لا بدافع الخوف. لا يوجد في المونتيسوري «هو كده وخلاص» أو «أنا أمك ولازم تسمع كلامي غصب عن عينك».

سواء كنتم في بداية الرحلة مع أطفالكم، أو أخطأتم الطريق، ظهرت على شخصيتهم بعض الانحرافات، إليكم بعض النصائح لاستعادة «حالتهم الطبيعية» التي تحدثت عنها منذ قليل:

- حرروا الأطفال من السيطرة، دوركم في حياتهم هو مراقبتهم، اكتشاف اهتماماتهم وفتح أبواب ملائمة لهم للاستكشاف والتعلم.
- حركوا خيالهم، لا تحركوا خيالهم بالكارتون والشخصيات الخيالية والأساطير بل قدموا لهم الأدوات التي تساعدهم على التخيل والإنتاج في الوقت ذاته، مثل المكعبات الخشب والليجو والعصيان المغناطيسية والعديد من الفرش والألوان.
- إثارة فضولهم، لا شيء يثير فضول الطفل أكثر من الطبيعة لذلك يفضل أن تكثروا من التنزه في الحدائق ومراقبة الطيور والحيوانات والحشرات في مراحل نموها المختلفة.
- مساحة للحركة، الطفل ينمو من خلال المشي والجري والنط والتسلق بحرية. لا تفرضوا عليهم الجلوس بدون حركة، أو القراءة والكتابة لفترات طويلة، قبل ستة أعوام.
- مساحة للاستكشاف، يحتاج الطفل إلى استخدام يديه لتنمية عقله وذكائه. الطفل الذي لا يستكشف بيديه يصاب بلامبالاة ويفقد فضوله وحبه للمعرفة. أول علامات الاستكشاف هي وضع الأشياء في الفم للتعرف عليها.
- الأعمال الهادفة، لا تشغلوا أطفالكم بأعمال لا هدف لها وإلا ستصبح هذه شخصيتهم. إذا طلبتم منهم ري الحديقة، مثلًا، فاشرحوا لهم أهمية ما يقومون به.